

اللغة العربية في جاهليتها

كيف انتهت الى لغة القرآن

للاستاذ السباعي السباعي يومى

المدرس بدار العلوم العليا

اجتازت العربية في جاهليتها ثلاثة أطوار: طور أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام بن نوح لأنهم إلى ابنه إرم ينسبون، وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول بسكان الين القدماء، اختلاطاً جعل لغة كل فريق تؤثر في أختها؛ ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة، فصارت أوضح منها في العربية الثانية، لما هو متفق عليه، من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان، فعرفوا بالعرب المتعربة، ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم؛ أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرحم القحطانية، فرفع قواعد البيت، ثم عاد تاركاً هناك ولده إسماعيل الذي أصهر من تلك القبيلة، فكان له بنون نشأوا يتكلمون لغة جديدة، تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة أمهم حتى إذا ما انحدر التناسل في ذريته إلى ابنه عدنان، تم ظهور شعب آخر، هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة، وبذلك كانت هناك لغتان: قحطانية في الجنوب، وعدنانية في الشمال؛ ولكن مهما قلنا في التفرقة بين اللغتين، فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى، لأن تكوين الثانية من الأولى يأبى هذا الاستقلال كما يحتم في الوقت ذاته أن تكون الأولى أغلب على الثانية، عملاً بتغلب الكثير على القليل، وكذلك مهما قلنا في التقارب بينهما فلن يبلغ التقارب درجة الاتحاد، وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا بعيدين في الجنوب عن الاختلاط بالعدنانيين في الشمال، وعلى هذا كان هناك خلاف تناولته عوامل التهذيب والتقريب والتوحيد، كما تناولت اللغة من ناحية أخرى بالترقية والتحسين حتى انتهت إلى لغة القرآن، وهو ما تسكلم فيه الآن.

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذي حدث في اللغة إذن حتى انتهت إلى لغة القرآن أمران: أحدهما السير بها في طريق التحسين والترقي بمجهود كل قبيل على حدة، وبقطع النظر عن أن يتقرب في ذلك

إلى لهجات غيره من القبائل الأخرى ، والثاني العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهي كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد؛ ولكل من هذين الأمرين عوامل هي المجتمعات الخاصة للأول والعامة للثاني، على أنه من الطبيعي أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الأخرى، فما هي إذن تلك المجتمعات ؟

المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم إليها أحوالهم، وشهدت بها ألفاظهم، وكلها كان يستدعي منهم أن يقولوا ويتكلموا، ومحاولين في ذلك تجويد قولهم، وتحسين كلامهم ما أمدتهم القريحة وطاوعهم البيان، وفي هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقي ما نريد أن نقول .

فمن تلك المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة في تدارك حرب أو شب غارة ، وكان يقع غالبا في قبة يضر بها لهم من تكفل بأمرهم، فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم، ثم تدور أقداح القول ويجري النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا إلى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ؛ ومن هنا نشأ ما يذكرونه من الرأى المبيت وطلب الاقبال عليه، والرأى الفطير والتحذير منه .

ومنها ما كان للحكومة وفصل الدعاوى والمنازعات، فيستعد كل فريق للدلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويدعنون لحكمه، وقد كان هؤلاء الحكام يختارون ممن عرفوا بحصافة الرأى وحضور البديهة وقوة البيان، حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من هذه المعمة الكلامية، التي يريد أن يخرج منها كل طرف في الخصومة على خصمه فائزا منصورا .

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول في أمر أو الكف عن أمر، مما يتطلب من ذوى المكانة والرعاية قبل الدعوى إليه قولاً وبيانا ، ومن السامعين مدافعة وحوارا ، حتى تستقر الأشياء في أنصبتها، وتطمئن النفوس إلى الأمان بها؛ ومن ذلك حلف المطيعين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى عمهم عبد الدار مأعظاهم إياه أبوها قصي بن كلاب من أمور البيت، فأبوا عليهم ، وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم تلك الأمور بينهما، وإنما سمي بذلك لأنهم غمّسوا أيديهم حين عقده في طيب مسحوا به الكعبة توكيدا له وتوثيقا، وكثيرا ما كان يقع التحالف إذ اتسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحد ويتهجم على العرف، فيهب أشرافها يدعون إلى التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر، ويتعاقدون عليه كما فعلت قريش في حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب، وسفيان بن حرب، ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة، وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه وسلم « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حرانعم، ولو دعى إليه فى الاسلام لأجبت »

ومنها ما كان للعظة والاعتبار، فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة وتقس طاهرة يجتمعون إليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما توحى عقائدهم وتهدى فطرهم، ومن هذا النوع ما يقال من اجتماع قريش حول كعب بن لؤى الجذ السابغ لرسول الله، كل يوم عروبة، يعظمهم ويذكروهم، وأنه لذلك سمي يوم الجمعة، كما أنه لذلك أيضا لسبقه يوم السبت لليهود والأحد للنصارى، اختاره الاسلام بعد، فجعل صلاة الجمعة فيه .

ومنها ما كان إذا خلا من مشاغلهم لمحض الألس وترويح النفس: بذكر ماسلف من الحروب والوقائع، وقص مامضى من السير والأخبار، وتناشد ما حلا من الشعر والقريض، إلى غير ذلك مما تنشرح له الصدور، وتنتعش به الأفئدة؛ وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع عادة إلا ليلا، ولذا سمي حديثه بالمسامرة والسمر، وهما في اللغة حديث الليل، وكانت عاداتهم فيه أن يتحلقتوا وفي وسطهم من ينتهى إليه أمرهم، وكثيرا ما كان يتحسس المتكلم منهم إذا أراد ذكر قصص غريب أو حادث عجيب، فينهض لالقائه واقفا كما يفعل الخطيب .

فهذه المجتمعات الخاصة قطعت في تهذيب اللغة بالمعنى الأول شوطا بعيدا، ولها أسست الأندية، ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصى بن كلاب، فكانت تجتمع فيها قريش للأموور السالفة ليلا ونهارا، ومن ثم سمي مجمعا، على أن الاجتماع بها لم يقتصر على تلك الأمور، بل تعداها إلى غيرها: كالأملاك والأعذار، فكان يقع من الكلام ما يلائم الموضوع، ومن الخطب ما يناسب المقام .

المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ما أدى الاجتماع فيها إلى الاختلاط بين قبيلتين أو أكثر، أي كان الدافع إلى هذا الاختلاط، وتقصد منها أكثر ما تقصد إلى العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل، وبخاصة يمن ومضر، وإن كانت تؤدي مع هذا إلى ماسبق ذكره من رقى اللغة وجودتها؛ وقبل أن نتكلم على عواملها، وهما قريش والأسواق، لابد لنا من القول بأن العامل الأساسى لها قبل هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية، حيث غادرت كثرتها اليمن في القديم: لسيل العرم، أو للعيش، أولغيرهما من أى شىء تشاء، فلات من الجزيرة العربية وسطها وشمالها، وما بعد من أطرافها، وبذلك كان تحالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الأيام، ثم كان ماسند كره عن قريش والأسواق، فضعف كل الضعف ما بقى من فارق أو كاد .

قريش

«إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا» رفع إبراهيم قواعده وابنه إسماعيل، فأقاما أركانه وأتما بنيانه، وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه عنهما « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من

البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم» فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصى، ويأتون إليه من كل فج عميق، يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه؛ ولقد كانت أفئدتهم تهوى إليه استجابة لدعاء نبيه وخليفة حيث يقول: «ربنا إني أسكنت من ذرى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون»

فما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن إسماعيل، حتى جاءت قريش فكانوا أجبرته الأذنين، يقيمون حوله ويقومون بسداته، توفيرا لراحة زائريه، وعملا على إرضاء قاصديه ، يستمعون جميع لهجات العرب إذا : دعوا ولبوا ، أو تضرعوا وتوسلوا ، وإذا أرادوا أمرا أو قصدوا شيئا فلا يزالون موسم الحج على طوله؛ وإذا لم يك حجاج كان اعتما، ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات ، وينقل الوافدون إليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم ، فينشرونه في أرجاء الجزيرة ونواحيها وهكذا دواليك؛ بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب، حتى تهذب عبارتها، وترقى أسلوبها، واتسعت لغتها، فصارت أوفى بتأدية المراد من غيرها، وأصبحت لهجة مكة، وهى حاضرة العرب وبلدة قريش، أوضح اللهجات بيانا وأعذبها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما، شأن اللهجات في حواضر المدن وقواعد الممالك ، تجد لها من الخلاوة والطلاوة ما لا تجده لغيرها في سائر مدنها وجميع قراها.

ثم لم تك قريش محل وفادة خصب، بل كانت بحكم عملها التجارى لاتزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء والصيف إلى اليمن جنوبا والشام شمالا، فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرهما إلى غير هذين الاقليمين ما تصادف في طريقها من خلاف، غزوا يكسر من حدته ويفل من غربه، فاذا هو خاضع مستكين، يتوارى ثم لا يلبث أن يزول .

الاسواق

أما الأسواق فجمع سوق، وهى مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء، وكانت للعرب أسواق عامة يبدؤون التنقل إليها فى أوائل سنتهم بالشمال، ثم لا يزالون يسرون إليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتهاء رمضان، فتعمد جميع القبائل إلى الاستعداد لخلال شوال للرحلة إلى سوق عكاظ، فيعمرونها أول القعدة إلى عشرين منه، ثم يغادرونها إلى مجنة قرب مكة بقية القعدة، ومن مجنة يذهبون إلى ذى المجاز بجانب عرفة، لابنى كما قد يقال، ومنها يكون المنصرف إلى الموقف الأعظم بعرفات، وبالصدور منه ينفرط عقد الناس .

ولما كانت هذه الأسواق الثلاث قريبة المكان من مكة، والزمن من موسم الحج، كانت أعظم الأسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا، وكل مجتمع كهذا لا يخلو، والناس يزحم بعضهم بعضا، من بادرة غضب أو سابقة قول، وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين، فيرى كل

(البقية على الصفحة رقم ١٤٩٤)

مذاهب العلماء وعقيدة الوجود

للاستاذ أمين فهمي أحمد

ياحترنا	في علوم	لم تكشف الحق بعد
قالوا :	الطبيعة أصل	والأصل يرقى ويفدو
في نشأة	بعد أخرى	نجد يؤاتيه نجد
والذر فيه	حياة	وبالحياة يمد
إلى	تطور عهد	فيه الأناسي جنود
والكل	لم يك شيئاً	والأصل في الناس قرد

غريزة	العقل	فيهم
بقدر	تكوين	كل
سوى	الحياة	تباعاً
فتارة	في	زهور
أو في	البحار	وترب
أو في	الآثير	تسامي
ولا	فناء	لدنيا
غوائل	الفكر	فها
يؤيد	الرأى	هذا
على	العقول	بأنا

هذا	فريق	ومنهم
من	كهرباء	سراعا
والروح	أصل	وجود
على	نظام	ونسق
حياتها ،	ثم	تفنى
إلى	حياة	خلود

فان	رجعت	لدين
أرى	المقول	قصاراً
فأنت	نور	ونار
وأنت	عقل	وفكر
وأنت	حرب	وسلم

فيه	الهداية	رشد
والعلم	ضلك	« هند »
وأنت	أرض	ومهد
وفي	السماء	الممد
وما	لحرب	أعدوا

وأنت سر مصفى	إلى قلوب تمد
فلو تطهر قلب	لكان فيه المرد
مظاهر الكون «هند»	يألبتهم ما تعدوا
فوسعة القلب تهدي	لوسعة لا تند
لكن «هنداً» أرادت	بحيرة أن يردوا
إلى الصواب فجاءوا	بباطل لا يسد
مغاني القلب كشفنا	وفي الظلام تردوا
الله ربى إليه	رجعى العوالم بعد
وسوف يعلم قومى	أن المكون فرد
والفرد كل وجمع	والجمع ليس يعد
ذاتى تسمى باسمى	وكل عضو ممد
فباسمه جل ربى	ماثم إلاه فرد
فحققوا القول تلقوا	محجة الحق واهدوا

(بقية المنشور على الصحيفة رقم ١٤٩٢)

اللفظ العربي في جاهليته

من المتنازعين حوله من الخطاء والبعداء ما يطلق من لسانه ، ويثير من انفعاله ، فيقول ويفخر والجوع مثار القول والفخر ، ثم ينصرفان وفي نفس كليهما موضع لم يبلغه ، فيعود هو أو أحد عشيرته إلى السوق من عامه القابل ، وقد أعد قولاً يرد به على منازعه ويتكلم به تقصافاته .
هكذا بدأ الاتجار بالكلام في الأسواق ، وما زال آخذاً في الازدياد حتى كان خير بضاعة ، أو هو البضاعة النافقة في هذه الأسواق ، وأخصها عكاظ ، فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بهاعده ، ولله خارايتة ، فيستمع المحكون ، وإذا هم يقدمون ويؤخرون ، وفي هذا من الباعث على الروية في القول والتخير للفظ ، مارفع من صناعة الكلام ، وجعل التروى من عادة الكثيرين ، وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير ، وشتان ما بين البدية وإن وافقت الصواب ، وسداد البصيرة وهدى التفكير .

وإذا كان الشعراء والخطباء ، وكل ذى كلام ، يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ، ولا بد أن يريد ، تقول إذا كانوا يريدون هذا ويريدون لغة قريش أو في اللغات به ، فقد انثنوا إليها جميعاً يستوحون فصاحتها وبيانها ، ويستمدون قوتها وسلطانها ، حتى غطت على جميع اللهجات ، فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى ، والامام الذى بقوله يقتدى ؛ عرف العرب لها ذلك واعتقدوه في المحاكاة والتقليد ، فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها ؛ وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب ، حتى قارب توحيد اللهجات التام ، واستمد العرب لفهم القرآن الكريم ، الذى نزل بلغة قريش ، ومعرفة مواطن الاعجاز فيه ، فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات ، ثم لم تلبث أن قضى عليها القضاء الأخير .

السباعى السباعى ييوى